

داروق مؤسسى
القصة العربية فى اسرائيل
وانعكاس نصبة التغيير
الاجتماعى فيها

نسيطة من « الشرق » . أيار ١٩٧٣
السنة ٣ . العدد ١٢ ، ص ٧ - ١٦

القصة العربية في اسرائيل

وانعكاس قضية التجديد الاجتماعي فيها

افتتاحية ونظرة تاريخية

عاشت الاقلية العربية التي بقيت في اسرائيل بعد عام ١٩٤٨ في وضع اشبه بالحصار الثقافي والسياسي . وكانت الكتب التي تتسرب الى مكتبة المثقف هزيلة على وجه الاجمال .

ومع ذلك لم نعدم ان نجد بين ظهرائنا الشعراء والقاص وكاتب المقالة ، بذرات تأتي لها ان تعطي الاطلاق وتسبق بفضل استعدادها ودأبها ، ورعاية الادباء من يهود العراق ممن اغنوا ادبنا المحلي بملاحظاتهم وتوجيهاتهم وانتاجهم . كما كانت الصحف الحزبية بمختلف تياراتها تستقبل ما تنتجه القرائح فتحت على المضى قدما .

وإذا اعتبرنا الادب تعبيرا تسجيليا لواقع نعيشه فالقصة ، احد اركان هذا الادب ، اخرى بالتسجيل من غيرها لما لها من علاقة بناثية بالوصف في نقل الصورة مضافا اليها ما يجعل فيها ذائقة ونكهة .

وما نحن في معالجة لقصص ادبية ليس حتما ان تعبر تاريخيا عن مرحلة اجتماعية . هي صور التقطتها عدسات القاصين ، صور ليست غريبة عن واقع كان او حقيقة كائنة وانما فيها من البساطة والصدق ما يمثل قطاعا من الناس من الصعب تحديده .

وفي مجتمعنا العربي الاسرائيلي مررنا بخطى ومراحل كادت ان تكون طفرة بعيدة المدى على المستوى الحضاري لذا فمن الطبيعي ان نجد هنا الاصطراع بين التقليد والتجديد ، وبين حدودهما وقفت القصة المحلية تسجل هذه التفاعلات النفسية والارهاصات الفكرية .

ونحن هنا نريد ان نستقصي بعض ما كتبه القصاص حول نوعية الحياة التي كان يعيشها آباؤنا وما زالت آثارها متغلغلة في بعض العقليات المحافظة، هذه العقليات التي وقفت تستقبل الجديد مشرهة ، يكتنفها جسو من الحيرة والتمزق ، خائفة وجللة عن مستقبل مشوب

بالغموض ، فمن حق الاب الذي يهدى بسنه آباءه ان يرفض افكار الابن الذي ينزع الى الاستقلال الذاتي في الرأي والابتعاد عن الرسميات العائلية . فلا غرو ان نرى الآباء بغالبهم يلعنون أبناء هذا العصر لما وصلوا اليه من فسق والحاد .

وإذا كان العربي الاسرائيلي قد تغيرت نظرته الى الحياة واقبلت الحياة عليه بفضل امتزاجه بشعب حضاري فقد مرت القصة ايضا عبر نقلات سريعة من حيث قيمتها البنائية والانسانية .

اخذنا نقرأ القصة او اللوحة تصور المواقف الانسانية او تصف التقاليد او ترمز الى الوضع السياسي الحرج الذي تعيشه الاقلية العربية في اسرائيل .

وبالتالي فقد حظت قصتنا بالنفثات النقصاد ، فهذا الاستاذ شمعون بلاص يترجم لبعض قصاصينا اذكر منهم توفيق فياض وحنا ابراهيم . كما ترجم توفيق شמוש ايضا بعض القصص المحلية لزكي درويش ومصطفى مرار ، كما ترجم بنيامين زكاي ونير شوحيط بعضا من قصص محمود عباسي ، وترجم انطون شماس قصتين لزكي درويش - كل هذا الى العبرية . وهذه صحف الادب في العالم العربي تشيد بقصتنا المحلية ، فقصاص اميل حبيبي وطارق عون الله ومحمد نفاع يطريها احد النقاد ويصفها بانها تمتاز «باصالة التجربة وصدقها وحرارتها» .

لسنا هنا بصدد تقييم فني للقصة المحلية فقد اخترت القصص التي تساعدنا في هذا البحث بغض النظر عن قيمتها الادبية وادراكا بأنني اغفلت قصصا كثيرة ناجحة .

«القميص والطابور»

لو اردنا ان نعالج قصة رمزية نستخلصها في هذا الصراع وتشير الى ما سنذهب اليه في معالجة هذا التباين لما وجدنا خيرا من قصة زكي درويش «القميص والطابور» .

فهو يعالج هذا الصراع الخفي الدائر في نفسية الاب وكيف انساق هذا الاب لمتطلبات العصر .

فالتقليد يتمثل في قميص قديم يعبر عن السلطة الاجتماعية التي تشبثت بموروث عقائدي يتناقله الخلف عن السلف ، والقميص ايضا رمز لما ينوء به هذا المجتمع من قيود رسف بها ، واغلال كبلته بلا طائل .

كان صاحب الاملاك يلبس هذا القميص ويسير بخيلا في الطريق الزراعي ، في يمينه هراوة اغلظ من الهراوة التي كانت مع ابيه .

ورغم ان القميص لا يناسب لابسه الجديد فهو ممزق بحيث لا يمكن غسله وهو كربه الرائحة بحيث لا يمكن ان تطاق ، ومع هذا فقد بقي الاب محافظا عليه ويلبسه عندما سلمه الميراث .

والتجديد يتمثل في ابنه الذي توسل الى ابيه ان ينزع القميص عنه .

— ولكن هذا القميص لا يناسب

— هذه المرة اخرس تماما . احترم الاجداد يا

حيوان ٢ .

هذا الابن يطلب من ابيه ان يتعلم فيظن ابوه ان به مسا : «وبعدها نبتت في رأسه فكرة مجنونة . اراد ان يتعلم تاكدت ان الفتى اصيب بالجنون» ٣ .

ويقع الاب في المدينة فريسة لسخرية ابناء المدارس الذين يتهكمون عليه :

— من اين اشتريت هذا القميص يا عم

— هذا الرجل يصلح لمعلم التاريخ . من اي

عصر انت يا عم ؟

والفتى الرجل نفسه مطوقا حوله هذا الجيل الصاعد فأحس حياله بالوهن وكاد ان يستسلم ولكنه اخيرا يذكر اباه وجده فيندفع الى الامام مؤمنا ويقتحم الدائرة

٢ زكي درويش : «القميص والطابور» الشرق . آذار ١٩٧١ . ص ٣٣ .

٣ ن . م .

بعزيمة مستمدة من عاطفته لكن الاولاد يطاردونه . يسرع فيسرعون ، فيحس بالضعف ثانية ، وعندما وصل داره خلج قميصه وهو صامت تردد قليلا ثم القى به داخل الموقد .

ابتسم بالبداية وهو يشاهد النار تأكله ولكنه عندما رآه وقد تحول الى رماد فهقه بصورة غريبة . فرح الابن لهذا التصرف المفاجيء وبسلا من «علقه» منتظرة وحرمان من المدرسة وجد نفسه في موضع حنان من الاب .

ها هو الاب بعد ان حرق القميص المشؤوم بكل ما يحمله من اتصال بموروث لا مبرر في الحفاظ عليه تتغير نظرته الى الحياة والى ولده فيقول لابنه : «سأرسلك الى المدرسة في المدينة» .

× × ×

هذه قصة بارزة تشير الى هذا الصراع الذي يعيشه المجتمع العربي في اسرائيل خاصة والمجتمع العربي عامة وهي واحدة من القصص التي كتبها اصحابها عن ذاتية خاصة مدفوعين بتيارات التغيير ايجابية وسلبية، فاعتمدوا على عنصر البيئة والجو واعني بها القسوى ومجموعة العوامل الثابتة والطارئة التي احاطت بمجتمعهم ككل ، واحاطت بهم كافراد ، واثرت على تصرفاتهم ووجهتهم وجهة معينة .

لسنا نفترض في هذه القصة او مثيلاتها ما نضعها على المستوى الذي نفترضه من معاناة حقيقية لجوهر الحياة، فيندر ان نجد القصة المشفوعة بالتحليلات النفسية او الدراسات الشخصية او المتعمقة في السلوك والاجتماع .

لننظر الى الصورتين المختلفتين نحاول ان نجد الصلة بينهما رابطتين القصة المحلية بحالات اجتماعية وظروف خاصة . لا يهمنا تاريخ كتابة القصة بقدر ما يهمنا تمثيلها لفترة زمانية .

القرية بين مرحلتين

من الصعب تحديد الزمن الذي يساير المجتمع فيه تغييرا . فأي تغيير لا بد له من استعداد مسبق وتمهيد لكننا نجرؤ ان نقول هنا وفي هذه المعالجة ان الحد الفاصل البارز هو بعد قيام الدولة ببضع سنوات .

كانت حياة القرية كما صورها كتاب القصة قاسية مريرة فيها تناقضات طبقية : اقطاعي يشتغل وفلاحون مستغلون راضخون تحت مشيئته .

اسعد على ابي جعران ويختلق حكاية الغول النسي
الخافته فيهرب الحارس ابو جعران ويقوم اسعد بتنظيف
المقناة من الخيارات .

تمر الايام باهتة اللون «تجر اقدامها دون ان يحدث
شيء يستحق الذكر»^٩ وربما كدر صفوها حياة الضريبة
رموظفو دائرة الاراضي والمختار^{١٠} .

والقرية كما قلنا فيها طبقتان اجتماعيتان متفاوتتان:
طبقة السادة وطبقة الفلاحين . فزيارة الوجهاء والمختار
بركة للبيت ولكنه مع ذلك خراب . بركة لان هذا الزائر
انسان كبير يتملك اليه الجميع^{١١} له الشرف والصولة،
وخراب من ناحية سياسية^{١٢} او اقتصادية^{١٣} :

يقوم صاحب العزومة لينبش جميع الصناديق
والبقج بحثا عن نصف رطل من الارز ليحضر
العشاء لابن الزعيم ثم يذبح شيخ الدجاجات لابن
شيخ البلد حتى ليلوح لعابر السبيل ان بالدار
عرسا او جنازة^{١٤} .

ولا تخلو القرية من اصحاب الحرف الحرة . كان
ابرزها التجارة . يخرج الواحد منهم «ليلحق السوق
ويبيع بأفضل ثمن ، فكان لهذا يسير خلف حماره حافي
القدمين ولا يضعها في الحذاء العجوز الا عندما يبلغ
طريق السيارات المعبد المؤدى الى المدينة»^{١٥} .

هذه الصور مألوفة في القرية لكن يد التغيير اخذت
تعمل دائبة وبنشاط . فيقوم الابناء ببناء دار جديدة
والامر لم يكن في بدايته يسيرا ، فقد نظر الاب بعينين
ملؤهما الحقد الى اكوام الرمل والحصى المعدة لبناء الدار
الجديدة «واخرج ولاعته لكي يتفادى السقوط في الحفر
المعدة لارساء قواعد البناء المشؤوم»^{١٦} .

وغضب الاب يعود الى قطع الكرمة التي شاء «المهندس»
ان تقلع حتى يكون البناء مربعا ، هو يرى في هذه
الكرمة رمزا للحفاظ على ما يملك ، رمزا لسلطنته الابوية

وبيت الفلاح بسيط هو يسكن «في جحر تحت الارض
بلا منافذ او شبابيك لا يعرف الشمس ولا الهواء النقي .
وما دمنا في سيرة البيت آسف : الجحر فيجب ان اقول
لك ان مساحته هي اربعة امتار طولا وثلاثة وبضعة
سنتمترات عرضا ، سقفه اخشاب معوجة مشققة بلغت
من العمر عتيا»^٤ . «ويغطي قسم من ارض هذا الجحر
حصير فقدت معالمه الاصلية بين كثرة رقع الخيش التي
عالجنه بها امي لتطول حياته ، وفي وسط الحصير
ينتصب كانون نار صنعته امي من اللبن وبقوار الحصير
طاولة صغيرة عليها ما يشبه الفراش مغطى ببطانية
سوداء مرقعة برقع متنوعة الالوان وفي الجهة المقابلة
طاولة اخرى احدى ارجلها مكسورة هي مطبخ دارنا !
عليها ثلاثة صحون وملعقتان ونصف !»^٥ «وبجوار
الطاولة قدر سوداء تراكم عليها السناج اما الحمام
(نعم الحمام) فهو بلوغة بجوار عتبة الجحر» .

وفي مثل هذه الظروف السكنية كان يعمل الفلاح
بنشاط بين الغلس والغسق صيف شتاء ، لا يعرف
الراحة الا في ايام معدودات في المواسم والاعياد وايام
المطر .

«كان الكل يعمل جادا . . حتى يتم له جمع كفايته
السنوية من المزروعات الشتوية والصيفية ، وطبعا
الزيت والزيتون ولم يكن احد يغفل عن قوت دوابه
فكان الكل يجمع حاجتها السنوية من التبن والكرسنة
والجلبانة»^٥ . فاذا تم ذلك «كان يشعر براحة كبرى .
كان يشعر كأنه ملك»^٦ .

يقتل الفلاح وقته في ليالي الشتاء دون ان يحمل
نفسه عناء التفكير الجدى ، فلياليه لعب ورق . ومن
ينال حظوة يشارك الشيوخ في جلساتهم ويصغي اليهم
وهم يرددون القصص ويستعيدون ذكرياتهم او قفساتهم
البريئة وغير البريئة في بعضهم .

«ولكن امتع مجالس الشتاء كانت تلك الحلقات التي
يجتمع فيها الشيب والشباب نساء ورجالا ليصغون
الى بطولات ابو زيد الهلالي ودياب بن غانم»^٧ . فكانت
هذه الحكايات تفعل في نفوسهم فعل الاساطير .

في الصيف كان اللعب على البيادر فوق عرصات القش
وبعد السمرة يستطو بعضهم على مقناة او كرم فيحتال

- (٨) ن . م . ص ١٦
(٩) عطا الله منصور : «صراخ في القفص الذهبي» ، البئر
المسجورة ، ص ٧٣ .
(١٠) محمد علي طه : «قرش صباغ» ، سلامة وتحية ، ص ٤٤ .
(١١) محمد علي طه : «متى يعود أبي» ، لكي تشرق الشمس ، ص ٥٢ .
(١٢) ن . م . ص ٥٣ .
(١٣) مصطفى مراد : «انتقام العذارى» ، النخيمة المقنونة ، ص ٣٩ .
(١٤) ن . م . ص .
(١٥) مصطفى مراد : «وفيات الاعيان» ، البئر المسجورة ، ص ١٤٦ .
(١٦) زكي درويش : «الكرمة لا تموت» ، شتاء القرية ، ص ٦٣ .

- (٤) محمد علي طه : «متى يعود أبي» ، لكي تشرق الشمس ، ص ٥٣ .
(٥) الياس عوض : «أبو جعران» ، البئر المسجورة ، ص ٩ .
(٦) ن . م . ص ١١ .
(٧) ن . م . ص .

لذلك فهو يصير كل الاصرار الا تقطع حتى ولو لم يتم البناء .

لكن البناء يقوم شامخا تحت ضغط والحاح من الابداء وما تلبث البيوت الحديثة ان تتسلق جبال القرية «شبيهة بالعمارات اليهودية» ١٧ .

× × ×

اخذت القرية تغير من مظهرها عندما خرج الشباب الى مرافق العمل في المدينة ، تركوا الزراعة التي لم تكن تسد رمقهم فانبهرت ابصارهم لهذه الحياة التي لم يألّفوها ، رأوا حياة ديمقراطية تسود ابناء الشعب الاخر فلا سيد ولا مسود ، ثم رجعوا الى القرية وقد تفتحت بصائرهم وما عادوا يستسيغون ان يستخدموا لسيد فتقابل هذه الحركة التحررية ، وهذا الانطلاق ، بشيء من الانكار عند العوائل المتباعية بحسبها ونسبها: ان عائلتنا (آل الجليل) معروفة في المنطقة بكرمها ، وفي القضاء ببطشها وفي القرية بسيادتها المطلقة . لقد كنا حتى الامس القريب نستخدم جميع ابناء عائلة الحطاب في اراضيها الشاسعة وهل يعقل اليوم ان يقوم احد ابناء هذه العائلة بشتم عائلتنا ١٨٩ .

وطبيعي ان تنور العواطف ويقع الصدام بين افراد العائلتين ولكن بدلا من استعمال القوة وسيطرة الطبقة الاقطاعية تأتي قوات من الشرطة لتأخذ العشرات الى التحقيق ١٩ .

قلنا ان الكثير من السكان خرجوا الى العمل فلم يعد حتى للمختار سطوة او هيبة وحتى ابو الحمولة تمرغت هيئته :

«آه على ايام عزك يا ابو الحمولة ! يا عمي الوقت تغير» ٢٠ وتغيير الوقت بالنسبة له يتجسد في ضعفه ازاء غريمه فالقانون يحمي هذا الغريم :

« اذا ضربناه هيه نعلق فيها وننام سنة في بيت خالتنا هي الحكومة امه والا ابوه ؟ اي والله في ايام قبل كان الواحد يكسر امثاله لا حكومة تسأل» ٢١ .

ولا يعرف ابو الحمولة كيف يتصرف غير ان يرثي لنفسه :

(١٧) محمود عباسي : «القرم» ، البئر المسحورة ، ص ١٢٨ .

(١٨) «صراخ في الفقس الذهبي» ، ص ٥٩ .

(١٩) ن . م . ص ٦٠ .

(٢٠) محمد علي طه : «علقة سوداء» ، سلاما ونجية ، ص ٧٢ .

(٢١) ن . م . ص .

«تفرغ الوقت الذي صار لزعر ابن هاملة يبذلك يا ابو الحمولة» ٢٢ . هو مصر على لقبه ابو الحمولة وليكن ما يكون ، يسأله الشيخ حامد عن سر غضبه فيجيبه :

«الدنيا تشقلبت يا شيخ حامد . هذا الوقت ما يحترم الشباب ولا اللي ع حافة قبره» ٢٣ .

والمختار كان يمثل سلطة لكن اثره اخذ يتضاءل تدريجيا فسكان القرية يعرفون ان المختار لم يعد له تلك القيمة وربما غالى بعضهم في نظرتهم اليه فهو «كالليمونة المصورة والاصح كروت البقر في شوارع وازقة القرية لا يتسير اهتمام احد لان الطرابين انقرضت» ٢٤ .

هذه بعض ملامح القرية والتي برزت في صورها الجديدة بعد ان مرت عليها يد التغيير . كان هذا التغيير وما يزال في القرية يقع في تناقضات بين القول والتنفيذ، يدعو بعضهم الى نبذ العائلية وترك المعتقدات البالية ولكنها ما زالت في النفوس تختفي لتبدو بحدة اكثر ثم تعود وتختفي لتظهر بشكل آخر .

ومهما يكن من امر فان القرية واهلها تغيرت مفاهيمهم . واذا كان بعض التردد في نقل اسباب الحضارة عند اهل القرية فان قصتنا المحلية قلما سجلت هذه الهواجس التي دارت باخلاق اهل القرية وهم يستقبلون امورا جديدة .

× × ×

الشباب المثقف في القرية

كان من الطبيعي بعد نشر التعليم الالزامي والمجاني ان تكون كادر من المثقفين الذين تلقوا الصدام الاول بين التقليد والتجديد . وبعبارة اخرى بين الآباء وبين ارائهم الذاتية ، فمنهم من خضع لسلطة الاب ومنهم من تمرد بتطرف . واذا كان من المثقفين من يمثل المرحلة الانتقالية في قصتنا المحلية فانه لن يكون متمردا رافضا ولا قابلا .

فهذا ابن مثقف يجد نفسه ممزقا ولا يهتدى الى حل امام تصرفات ابيه الغريبة يشعر نفسه انه رقيق في ارض ابيه فيقوم الى شهادة خضوري الزراعية التي تزين صدر غرفته يمزقها لانه لم يعد لوجودها معنى ولا قيمة «وما لرقيق الارض حاجة بها» ٢٥ .

(٢٢) ن . م . ص .

(٢٣) ن . م . ص ٧٣ .

(٢٤) سلاما ونجية ، ص ١٦ .

(٢٥) الياس عوض : «الضحية» ، البئر المسحورة ، ص ٢١ .

ومع اعتبارنا تصرفه هذا غريباً إلا ان دراسسة سيكولوجية فقط تستطيع ان تسبر غور هذه الفعلة ، وايا كان التفسير فلا شك ان هذا الابن قد ساير اياه ونهج ما انتهجه .

وإذا كان تمللنا من الابن في هذه القصة فسئرى بعد حين حيرة الابناء ازاء الاب المتعصب الذى يتساءل عن كلمة مودرن التى يرددونها^{٢٦} .

ومن المثقفين من يتمرد اطلاقاً بعد ان اعته الحيلة فهذا محمد علي طه في «كتاب في القرية»^{٢٣} يحدثنا عن مصير كتاب ، واغلب الظن انه كتابه الاول الذى قابلته سكان قريته باستهجان .

تبدأ الجلسة بالحديث عن الدخان كعادة بعض الفلاحين الذين يرجعون الذكريات : «سقالله ورق الشام» .

والقرية ببساطتها تحب ابناءها وخاصة المتعلمين . ها هم يستمعون الى ابن بلدهم باعتزاز وقد التأما في حلقة . ظنوا بادى ذى بدء انه سيحكي لهم كما كان يحكى لهم عن عنتر وابي زيد الهلالي والخليفة زيناتي وغيرهم ، وعندما يخبرهم الكاتب عن فحوى كتابه وانه يحكى عنهم بالذات ملأوا الديوان ضحكا وقتل ابو العبد شاربيه وتململ ابو عمشه في قلب عبائه المرقعة: «عنا يا استاذ؟ اي بلاش نكت . احنا مين؟

يا ريت يصير ابو عمشة بطل مثل ابو زيد ! وقال ابو عمشة اتق الله يا شيخ فال الله ولا فالك احنا أكلنا زوادة بطنك بدك تقطعنا مثل بني هلال يسوى ع العدا» .

ويفشل الاستاذ في شرح وجهة نظره وفي اقناع هذه الجلسة ويبقى ضحكة امامها ، فيغضب ويخرج محتجاً . هنا نلاحظ هذا التمرد الذى كان طبيعياً في حياة المنقف في القرية يرى بأى عينه مدى الهوة والتناقض بين ما يعتقد وبين ما يتمثل امامه على مسرح الحياة .

والابن في قصة «القميص والطابور» هو الذى تمرد ايضا ضد ارادة الاب وضد الحفاظ على القميص الذى يرمز الى التعصب الاعمى بالاضافة الى تمثيله للسلطة الاجتماعية القائمة . كان هذا الاب عندما سلم الميراث الى ابنه يذكر حصيلة العمر الطويل : «هراوات ترتفع

ورؤوس تشنق ، سكاكين تلمع ، ودماء تسيل في وهج الشمس المحرقة ، ومطاردات يتم اكثرها في ليل دامس، وعمليات مشبوهة شهدتها النجوم فقط»^{٢٨} .

فهذه العمليات واضرابها كانت في اواخر الاربعينات اشياء طبيعية لكن الابن لا يؤمن بهذه الاساليب ويقف حجر عثرة امامها ويقف معه كذلك ابناء الجيل الصاعد الذين حدقوا بالاب وارغموه ان يغير موقفه فيعود الى البيت ويلقى بقميصه ومعه مخلفات قديمة عفا عنها الزمن .

لم يكن الانتقال بهذه البساطة شيئاً طبيعياً في تاريخ اى تطور ولكننا ازاء تغيير في المفاهيم بشكل جذرى . هذه المرأة كانت لسنين خلت حبيسة فاطلقت من عقابها وهذا الدين لم تعد له تلك السيطرة وهذه العادات القديمة والخرافات اخذت تضمحل وتلاشى ووعي الفرد نفسه شيئاً فشيئاً .

المرأة القروية

للمرأة وضع حساس في تقاليدنا ، فمع ان القرآن اعطاها فرصاً للمساواة في امور دينية ودنيوية ، الا انها كانت وبتعبيرنا الشائع «ضلعاً قاصراً» ، مصنع تفريخ للاولاد تعمل بشقاء طيلة النهار . والويل كل الويل لامرأة لا تنجب الذكور فمن حق الزوج ان يطلقها^{٢٩} .

والزواج من اثنتين ظاهرة مألوفة في المجتمع القديم وها هي ام عائشة تؤكد لابنتها ان الكأس تدور عليهن جميعاً :

لقد تزوج والدك علي وتزوج والدى على امي وبنات عمك لا قبى نفس المصير . . . اؤكد لك يا عائشة انه سيؤثر في النهاية^{٣٠} .

ولعل سبب الزواج يتأتى ايضا بسبب الغنى والثراء فيقوم الزوج باقتناء هذه السلعة . . .

ما عسى المرأة ان تفعل وهي رهن اشارة مستعبدة تباع بالاف ويتزوجها اكثرهم سخاء .

يحدثنا الياس عوض في قصته «الضحية من» على لسان البطلة :

٢٨ «القميص والطابور» : ص ٣٢ .
٢٩ محمود عباسى : «القرم» . البئر المسحورة . ص ١٢٢ .
٣٠ نجوى فرح : «رماد» . لمن الربيع ، ص ٤٤ .

٢٦ «الكرمة لا تموت» : ص ٦٢ «القميص والطابور» ، ص ٣٣ .
٢٧ محمد علي طه : «كتاب في القرية» . البئر المسحورة ، ص ٨٠ .

تحصد وتقطف وتعشب الارض وتبقى في البيت تعجن
وتخبز وتطبخ وتكنس الحظائر» ٣٦ .

الحب ممنوع في القرية وان جرى فايس على عيون
الاشهاد ، وما من لقاء الا ويخيم عليه جو من الخوف
العنيف ففي قصة «هل تغفر له» :

وتجراً ذات يوم وقال لها : بدنا نشوقك يا
صفية . فاجأها فتضرح وجهها بحمرة الخجل
والحياء وتابعت سيرها وهي تختلس النظر اليه
فاردف وشفتاه تبتسمان ضراعة :

صفية مالك بتريش ؟

- دير بالك ليكون حدا شافك عمال تحكي
معاي .

اجابته وهي تتلفت حولها وجلة خائفة .

- لا فيش حد ٣٧ .

وسبب خوفها هذا الاب الذي يستعد لعملية قتل ان
لاحظ شبهة . لم تقتل صفية الاخرى ابنة الحاج خليل
- الرجل الذي لا يفارق المسجد ٣٢ . اما صفية هذه
فتقول مرتعدة :

- «واذا عرف ابوي يذبحني ، ثم قالت بصوت
منخفض حذرة مرتعشة : والفضيحة ؟» ٣٩ .

وتشهد الزرية لقاءات الحببين حتى لا يفتضح امرهما
او يحدث ما لا يحمد عقباه . ولعل تعاطي الحب بحد
ذاته يدل على فترة انتقالية مبتدئة في اتجاه جديد
للسهم .

ومهما كانت الصور الانفة التي طالعناها فما زالت
بقاياها في مجتمعنا في بعض القرى وفي بعض العوائل
لكنها في طريقها الى الزوال وذلك بعد ان تعزز دور
العامل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لعرب
اسرائيل . اذ ان المرأة بقيت وحدها بعد خروج العامل
من القرية فاضطرت ان تساهم في حل مشاكلها مع
مجتمعها القريب في المجلس المحلي والمدرسة ، فسي
العيادة القريبة ، وغيرها ، كما انها اخذت تحل خلافات
معينة مع جيرانها وبهذا اصبحت المرأة صلة بين العائلة
والمجتمع المحيط . وخرجت كذلك بعض الشابات الى

وابي كم توسلت اليه الا يزفني الى ابيك الهرم
القدر ، وكم بكيت ، ولكنه رفض . كانت العشرة
الاف ليرة اعز عليه من سعادة ابنته ، ولم
تكن تحميني من ظلمه ، ولما رفضت الاذعان الى
مشيئته ضربني ضربا مبرحا وهددني بالقتل
والتجأت الى ابيك واختليت به ذات مرة قبل
عقد الكتاب وافهمته اني لا ارغب في الزواج منه
ورجوته ان يطلق سبيلي . . ولكنه نظر الى
جسدي وضحك! ٣١

والمهر سنة غير ان قيمته لا تحدد . فالقرآن يقول
«فاتوهن اجورهن» . ولا يحل للاب ان يأخذ منه شيئا
الا اذا «طبن منه نفسا» لذا فاننا نلاحظ والد حسناء
يضع السنة الاف كاملة امامها حسب السنة فتغتاض وتريد
لو تلقي بالمبلغ في الموقد تعبيراً منها عن غضبها للزواج
العشري ٣٢ .

وإذا كان المهر حاجة ملحة فقد ترتب على ذلك اجتهاد
الشباب للحصول على المال وربما ادى الى نتيجته
سلبية وهي اللجوء الى الاختلاس ٣٣ .

وبعض ابناء هذا الجيل كانوا يضاعفون المهر ويغلوونه
مدلين بذلك على رفض المصاهرة ٣٤ . ولا زالت هذه
العادة موجودة ولموسة في قرانا .

x x x

والزواج يتم بواسطة الخاطبة التي تنتقي للشباب
عروسه وغالبا ما يكون صدفة كزواج البطل فسي
قصة «الوردة اليابسة» :

الم اقل لك انني لا احبها ، ولم احبها يوما .
انها اصبحت زوجتي صدفة ، كنت صغيرا ، قبل
سبع سنوات وافقت يوما من احلام صبيانية واذا
انا زوج وبجانبني على الفراش زوجة وبعد اسابيع
امحى الحلم وعرفت اني لا احبها ولن احبها وعشت
سنوات من الحرمان ، من العذاب ٣٥ .

وظاهرة الزواج المبكر ظاهرة مألوفة في القرية .
يقول مصطفى مرار : «في ايامهم كانوا يزوجون ابناءهم
وبناتهم قبل ان يبلغوا الحلم كي يضموا الى الدار يدا
عاملة جديدة هي زوجة الابن . تخرج معهم الى الحقل

- ٣٦) الياس عوض : «الضحية من» ، البئر المسجورة ، ص ٢٥ .
٣٧) مصطفى مرار : «سنة الآف» ، طريق الآلام ، ص ٨ .
٣٨) قيصر كركبي : «هل تغفر له» ، البئر المسجورة ، ص ٩٤ .
٣٩) مصطفى مرار : «البئر المسجورة» ، البئر المسجورة ، ص ١٥٥ .
٤٠) محمد علي طه : «الوردة اليابسة» ، لكي تشرق الشمس ، ص ٧٤ .

ويرودها بالاسلحة ضد النيارات المتعاكسة . العمل القائم على المعرفة .

ويسري حب المعرفة الى خادمة البيت . تقول لها السكرتيرة :

«عمل تحسين القراءة كما تحسين صنع القهوة ؟
الخادمة : يا ليت» ٤٢ .

وعندما تطلب السكرتيرة من السيدة ان تسمح للخادمة بالاشتراك في دورة تقول السيدة : «الضرر ان خادمتنا تصبح سيده» ٤٣ . وتنجح السكرتيرة في اقناع السيدة بالسماح لها ولا تكتفي بذلك بل هي تصر على ان يحاضر الزوج في مواضيع تحرير المرأة .

× × ×

وتستمر عملية التعلم لشجاعة الفتيات ومبادرتهن ، حتى تلتحق بعض الفتيات بالجامعة .

وتعود «جهان» الى بلدها المتواضع تحمّل شهادة جامعية شاعرة انها لا تمت الى عالم قريتها بصلة هم غرباء عن روحها لانهم في عالم يسوده الحقدرة والجهل «والبلدة خاملة بعيدة عن الرقي والعمران» ٤٤ . لا تجد لها صديقة تفضي اليها مكنونات صدرها وتبعد عنها آلام الوحدة والخمول .

هي لا تستطيع ان تتجول بحرية في بلدها المحافظ، لا تقدر ان تنزهه وحيدة في المزارع لثلا يظن بها الظنون ، فماذا عساها تفعل غير قتل وقتها وهي تستمع الى احاديث العجائز النافهة .

وتدأب ام جهان في اقناع ابنتها ان تلبس اجمل النياب وتتحلى بالاسورة كي تتفاخر الام وتباهي بها امام الجيران . «جهان كاملة الصفات حسناء ومتعلمة وتملك مجوهرات» . وهذا الخبر بدوره يقرب ابن الحلال .

لكن جهان تظل تشعر بخواء . ولا يسد رمقها الا النظرات التأملية الى المكتبة ، وهذه النظرات كانت فارغة النتيجة ، اذ ما قيمة الكتب ؟ ألعها ستحدث ام يعقوب او ام احمد عن شكسبير او تولستوي ؟ وتتأكد جهان ان محيطها واوضاعها لا تستوعب ثقافتها وهذا من شأنه ان يخلق لها مشاكل «فالفضل

(٤٢) نديم بطحيش : «النظارات السود» ، البئر المسجورة ، ص ٢٠٧ .
(٤٣) ن . م . ، ص ٢٠٨ .
(٤٤) نجوى فرح : دروب ومصايح ، عن سنايل في حقول الادب ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

العمل فحصلن على استقلال اقتصادي ينمو ويتدرج الى ان يصبح استقلالا فرديا . .

وتنال بعض الفتيات حظهن من التعليم اسوة بالفتيات وتتردد الدعوة الى حرية المرأة على السنة المثقفين خاصة وتقف الفتاة التي حظيت بنور العلم معرزة هذه الدعوة ايمانا منها برسالتها نحو بنات جنسها .

تجد المرأة في بداية الامر صعوبات في مسيرتها الحضارية فيوسف بشارة بطل قصة «صراخ في القفص الذهبي» ٤٠ . يكتب مقالا يدعو فيه الى تحرير المرأة : «تعالى ننبذ التقاليد التي حكمت عليك بالموت البطيء تحت اقدام الملل» ٤١ . وتقرأ احدى المثقفات مقال يوسف بشارة ويمر امامها شريط يسجل حياة المرأة العربية ، هذه المرأة التي تنتظر فارس الاحلام يأتي وينزعها من القفص الذهبي ليلتقي بها من جديد في قفص الحياة المنزلية .

وكان نتيجة لهذا الاستعراض ان بعثت برسالة تشجيعية الى الكاتب تفضي بها عن عاطفتها نحو خلاص المرأة . خرجت لاول مرة الى دائرة البريد حيث تنتهشها اعين المارة كي ترسل رسالة لشخص غريب ليس بينها وبينه صلة الا هذه القرابة الفكرية التي تتحدى كل مفاهيم القرية المتعصبة .

وان كان يوسف بشارة قد هزى بمقاييس المجتمع الذي يكبل المرأة باثقل القيود وهزى باعتبار المجتمع رسالة فتاة الى شاب جريمة لا تغتفر فانه هو نفسه ذئب يتربص لكل فتاة باسم نصره المرأة . اذا طريق المرأة ليست مفروشة بالورود وها هو احد المثقفين قد اساء الى حركة تحررها .

وعملية التحول مستمرة بفضل مساهمة المدرسة وقانون التعليم الالزامي للجنسين كما ان التقليد للجيران له مساهمة لا تنكر . فلولا ان تعلمت سعاد لما اقبلت سهام على التعليم . وهذا بالتالي خلق نوعا من التنافس كان خيرا وبركة على مجتمعنا .

ومجرد وجود ناد نسائي في القرية حدث جديد لا بد ان يؤدي دورا اصلاحيا . فهذه سكرتيرة النادي تطلب من السيدة نظمية ان تكون عضوة عاملة في الهستدروت توجه وتعلم وتقود لانه لا نهوض لمجتمعنا الا بتثقيف المرأة العربية والعمل هو الذي ينهض بالفتاة

(٤٠) عطا الله منصور : ن . م . ، ص ٥٤ .
(٤١) ن . م . ، ص ٥٦ .

ان ترحل من هذا البلد الى بلد آخر يلائم ثقافتها» .
اذ ان القرية التي تضطهد المرأة لا تلائمها فالمسرة
عنا «نقضي وقتها في الحقول وتحت اشجار الزيتون ،
تحمل الحطب حيناً والجرة على رأسها حيناً آخر . هن
يتزوجن مبكرات ، ويلدن اطفالاً باختصار في جهل
وفقر ومرض ..» .

ومما يعزينا في موقفها انها تحب اهل القرية فسي
قرارة نفسها . هي تحب البساطة ، لذا رفضت فساتين
التفتا والسواريه والازياء ذات الازرار والكشاكش ،
فثياب الفلاحات على رأياها طبيعية اكثر .

واتفق ان كان ولي الامر انسانا واعيا يدرك ما
للثقافة من حق . يدرك ان خدمة المجتمع هي الهدف
الاول والاخير لكل ثقافة لذلك فقد ترك وصية لابنته :
«لا يحتاج الاصحاء الى طبيب بل المرضى» .

اذا فعلى جهان ان تعمل بوصية ابيها ، ان تساهم
في بناء مجتمعها المريض ، والناس لا يحق لنا ابدا
احتقارهم فلهم افراحهم واشواقهم ، الا يعرفون عن
نواحي الحياة الاخرى اكثر ما تعرف .

وتهدأ نائرة جهان وتقتنع ان تبقى في القرية عاملة
جادة في خدمة من هم في حاجة اليها .

وإذا كانت جهان قد مرت صراعات مختلفة انتهت بها
الى مواكبة مجتمعها والسير في طريق يتمشى مع ظاهرة
صحية ، فان بعض الفتيات قد غالين او جنحن فامتلكن
الحرية الكاملة في الحب ..

فهذه هيام تهرب مع سميح وتبرر موقفها في رسالة
لامها : «لكننا يا امه نعيش في عصر تبدلت فيه المفاهيم
ولم يعد للخجل والخوف مكان في نفوسنا حتى نكبت
مشاعرنا وندفن عواطفنا في سجن من التقاليد والعادات
السخيفة» ٤٥ .

الشباب والجنس

خرج الشباب من القرية التي تحظر الحب وتقتله في
المهد - ان تيسر لها - وخلف وراءه نساء ينتظرن عودتهم
نهاية الاسبوع . وبقيت الفتيات محرومات مكبونات
تداعبن خيالات فارس الاحلام .

واستقبلت المدينة افواج الشباب بأفانين الاغراء ،
فمزجت بينهم وبين الفتيات الاخريات ممن يدركن معنى
الحياة ..

٤٥ نجيب سوسان : «ولكني امرأة» ، البئر المسحورة ، ص ١٨٥ .

فكرح هذا الشباب الجائع من حياض المذمة حتى اذا
عاد عشية السبت تدمر من زوجته البسيطة التي الفى
نفسه زوجا لها من حيث لا يشعر ولا يجد حرجا في
ان يطلقها لو تمكن ٤٦ .

وجد الشاب نفسه في المدينة حرا في ان ينظر السى
العابرات وبطيل النظر فتشبر اعصابه هذه الازياء الحديثة
التي تطلع بها بنات المدينة ٤٧ . وتثيره هذه المناظر
التي يراها تحت المصابيح من فتاة تقف وقد اسندت
رأسها الى كتف شاب ٤٨ ، الى صديق وقد «علق على
ذراعه فتاة شقراء» ٤٩ . لهذا فهو يهيب نفسه «لمعانة
طويلة في المساء» ٥٠ . وعندما تفقد الاشياء معانيها
يجلس على السرير يعرض امام نفسه صورا . واذا ما
تبين للشباب ان الناس تشتري الاجسام واللحم في
الازقة المظلمة ٥١ يجد الشاب نفسه مدفوعا للانفراد
بفتاة في زاوية مظلمة او يفتش عن وسائل اخرى ينفس
بها عن جوعه الجنسي .

سليم خوري يحدثنا عن اول تجربة يدخل بطله فيها
ناديا ليليا : «دخلت المقهى الليلي مع صديقي عزيز
وكلماته ترن في اذني مقهى من النوع الممتاز ، يمتاز
بكل شيء . يمتاز بالشقق الجميلات ذوات العيون
الجائعة والاجسام الناعمة» ٥٢ .

ومع ان عزيز تمتع واستمتع الا انه تمنى لو يستطيع
الحصول على طاقة الاخفاء ساعة خروجه ، فهو قد رفض
نداء عيون الراقصة ورفض ان يستدعي فتاة المقهى او
ان يوميء لها لان الحفاظ على تقاليده ودينه حالت دون
ارضاء شهوته الجامحة .

هذه هي بعض الظواهر الملازمة لشبابنا المنطلق الى
المدينة . حياء او بعض حياء ، ثم تردد ، ثم ابتداء ،
ثم اغراق . حتى وصل ابطال قصص محمد علي طه ان
ينالوا الفتيات بكل وسيلة، هم يضجون بالحياة والحيوية
رموا العيب والحرام من خلف ظهورهم :

وأى شيء اطيب واشهى وادسم من امرأة في السرير
.. الشرف الرفيع . الشرف الغليظ العريض عسارات
جميلة .. لكن ساقها اجمل ٥٣ .

- ٤٦ محمد علي طه : «الوردة اليابسة» ، لكي تشرق الشمس ،
ص ٧٤ .
٤٧ زكي درويش : «شتاء الغربة» ، شتاء الغربة ، ص ٧٥ .
٤٨ ن . م . ، «الرجال» ، ص ١٠١ .
٤٩ ن . م . ، «لحظة» ، ص ٥٢ .
٥٠ ن . م .
٥١ محمد علي طه : «ولدي» ، ن . م . ، ص ٤٤ .
٥٢ سليم خوري : «أول تجربة» ، البئر المسحورة ، ص ٤٤ .
٥٣ محمد علي طه : «الجوع» ، سلاما ونعية ، ص ١٠٠ .

اما الذين بقوا في القرية ، وهم قلة ، فقد ظلوا يؤمنون بالتقاليد او يعملون حسبها ولكن بشكل اخف لاحتمكاكهم بالشباب العامل في المدينة ، ولما سيرة العصر . فالخطبة تتم احيانا في جيسل مبكر وحسب اتفاق سابق ٥٤ . و احيانا يتم الامر بلا اتفاق فللقريبي حتى لا يمكن انكاره ٥٥ .

ومهما يكن من امر فان القرية اخذت تنفض عن كاهلها هذه الالتزامات عند خروج ابنائها الى المدينة ، فاذا كان تصرف يوسف بشارة ٥٦ غير طبيعي فان له ما يبرره : هو كونه يعيش في مجتمع مغلق ثم ما يلبث ان ينتقل الى مجتمع مفتوح ، ويرى فيه مئات الوقائع المشابهة فينسى ان بدء الطريق يحتم عليه الامانة .

وبطل قصة « المشوهون » سعيد يبادل فتاته الحب ، هذه الفتاة التي التقى بها في المدينة . تتحول حياته الى جنس صاحب ويتعرف على جارتسه في السكن «نادية» فيقيم معها علاقات جنسية وتسعى هي الى هذه العلاقة لان زوجها العامل يقضي الاسبوع خارج المنزل ليحصل على قوت عياله ٥٧ . وهو يشعر بالقلق والضيق ويبحث عن الجسد حتى ولو مع المرأة المجنونة فسي قبو المقبرة ٥٨ .

× × ×

الدين وتأثيره

كان من اهم دواعي العزوف عن الدين والخروج من حرمة هو هذا الجنوح المتواتر من الشباب في استقلالهم الفردي وانتهابهم للمذات . وانطلاق الشباب في رأسي يتناسب تناسباً طردياً مع هذا الجنوح الذي اشرنا اليه .

وفي قصتنا المحلية رأينا هذا الخروج ، فبطل سليم خورى عندما يدخل النادي الليلي يعرف في قرارة نفسه ان هذا حرام وتحت ضغط والحاح من صاحبه يقدم على شرب الويسكي لأول مرة ٥٩ . ولكن هذا الشاب الذي يقوم باول تجربة يود لو اخفته طاقية اخفاء بينما يصل بعضهم الى جرأة غريبة . فبطل قصة «كتاب في القرية» يتحدث امام جمهور محافظ عن الكاس والطاس لذا فان رد الفعل المتوقع شتائم تنهال عليه ٦٠ .

«يلعن الزمن . هاي كتب . الناس فسقت» .
وفي اثناء القراءة كان «ابو مهاوش» لشدة خوفه من عاقبة الكفر يقرأ سورتي الفلق والفاتحة ويمسح جبينه براحتيه .

فاذا ما رفض الشباب نصائح الشيخ واهملوه هو واقواله قال «هذه علامات القيامة . . . الفسق والاحاد والكفر . . .» ٦١ . واذا كان تمرد بعض الشباب على الدين ملحوظا من خلال علاقاتهم الجنسية وارتشافهم الخمر وعدم اداء الشعائر فان الخشوع ما زال ملازماً كثيرا من النفوس والغيرة الدينية تعتمل في انفس الشباب كلما وقع احتكاك او خصام مع ابناء الديانات الاخرى ، ولكن هذا التعصب والتزمت اخذا يتضاءلان امام المحبة الشاملة والاختلاط مع ابناء الديانات الاخرى وازاء المعرفة ان «الدين لله . والوطن للجميع» ٦٢ . ويصل الامر الى ان الدين لا يقرر علاقة حب بين اثنين ٦٣

ولا ندرى مدى صدق الصور التي ينقلها محمد علي طه : «في هذه الايام تركوا الصلاة تقريبا وفي قرى كثيرة لا تتم صلاة الجمعة فكيف بصلاة اعتيادية» ٦٤ .

لنحاول ان نربط هذا التغيير في فهمنا للدين مع تغيير وضعية المرأة الاجتماعية ووضعية الشباب وسنرى اي انفلات نتعايش معه .

الايمان بالغيبات

تكاد لا تخلو قرية من قبر ولي تضفي عليه حالات التمجيد توقد له البخور وترفع فيه الرايات . واسمار القرية واحاديثها عامرة بالقصص المفرزة والايمان بالارواح وقدرة الحجاب على صنع المعجزات ، فاذا ما استعصى على احد حل فيلجأ الى كل وسيلة لتحقيق بغيته . فالاب يزور قبور الاولياء لمنع اولاده من بيع الارض ٦٥ والمرأة الخائفة تعلق التمام في عنقها ٦٦ والنسوة يعملن للايقاع ببعضهن فتكتب الواحدة حجابا للكيد بالاخرى . لذا فان رسمية في قصة القزم ٦٧ تؤكد ان سبب زواج بعلا من امرأة اخرى يعود الى العجوز «الكريمية» ام ضررتها ، التي استعملت الحجاب والسحر حتى جذبته الى ابنتها .

- (٦١) زكي درويش : «الرجل والليل» . شتاء القرية . ص ٨٥ .
(٦٢) نديم بطحيش : «السائل العجيب» . البئر المسجورة . ص ٢٠٠ .
(٦٣) ق . قصص محمد علي طه .
(٦٤) محمد علي طه : «سلاما وتحية» . سلاما وتحية . ص ١٣ .
(٦٥) زكي درويش : «الارض» . ن . م . ص ٢١ .
(٦٦) ن . م . «السندانية» . ص ٣٨ .
(٦٧) محمود عباسي : ن . م . ص ١٣٥ .

- (٥٥) محمود عباسي : «القزم» . البئر المسجورة . ص ١٢٨ .
(٥٥) مصطفى مراد : م . ٣٦٠ .
(٥٦) عطا الله منصور : ن . م . ص ٥٤ .
(٥٧) توفيق فياض : المشوهون . ص ٣٤ .
(٥٨) ن . م . ص ١٢٤ .
(٥٩) سليم خوري : ن . م . ص ٤٥ .
(٦٠) محمد علي طه : «كتاب في القرية» . سلاما وتحية . ص ٨٣ .

الارتباط بالأرض والشعور بالغبرة

كانت الاحداث التي أدت الى قيام الدولة شيئاً هائلاً في نفسية العربي ، وجد نفسه منقطعاً لا يعرف هويته ولا علمه ، وليست القضية لبوساً مأساوياً في نفسيته :

هناك في الجليل قرى مهدمة صامته تحديق حجارتها بالمارة لتروى مأساة شعب مشرد لاجيء . . . لا يزال سكانها ضمن الحدود وقد بيعت قراهم وارضيتهم وقد تسنى لبعضهم ان يكونوا اجراء في اراضيهم ٧٢ .

فهذا الاجير في ارضه يشعر ان ارضه جريحة وانها تئن وعندما تحاول ان توفقه زوجته على الواقع وان هذه الارض ليست له يطردها من امامه .

ونتيجة لمصادرة الاراضي خرج الكثيرون الى العمل في المدينة :

«اما اليوم فابو الحمولة بلا ام . . . بلا ارض بلا دجاج وجاء ليعيش في المدينة مع حشمه واولاده . محل مسا ترزق الصق» ٧٣ .

ثم ما لبث الفلاحون ان استجابوا عمالا في المصانع والمزارع اليهودية ينتابهم خلال احتكاكهم باليهود شعور بالنقص بحق او بغير حق : « . . . عربي وتطالب الناس ان يتكلموا بأدب» ٧٤ ، «ان لونا احيانا يشقينا في بلدنا» ٧٥ .

في «سداسية الأيام الستة» نلمح عدم الارتياح او القلق الذي يعاينه العربي هنا : «فجلة» نفس عن غيظه عندما نفس عجلة سيارة البوليس ٧٦ . والمدرس الثانوي ينكر كل علاقة مع صديق او قريب مشاغب على السلطة خوفا على لقمة عيشه ٧٧ . والصديقة الحيفاوية تقول «انني اشعر انني لاجئة في بلاد غريبة» ٧٨ .

ورغم هذا الشعور الملازم بالاعتراب فقد ظلت طائفة من الناس داعية الى سلام حقيقي . الى وئام يجمع بين شعبين جمعهما وطن واحد . ولكن هؤلاء بالذات كانوا موضع شك احيانا وموضع اهمال آنا .

وعندما يسألها قريبتها هل تؤمن بالسحر تتردد وتقول أو من ولا او من وربما يعود هذا التردد لكونها تسكن في وادي الحليصة حيث هي قريبة من المجتمع اليهودي الذي يقل فيه مثل هذا الايمان .

ولو عدنا الى حكاية ابي جبران ٦٨ لسمعنا اسعد وهو يحدث صاحبه عن غولية «المرشقة» الارض التي ينظرها ، يحدثه عن زعيقها ومخالبها واسنانها وشعرها الطويل المنفوش . واذا كان ابو جبران قد ابدى استخفافا اول امره فانه كان مستغربا ومستهجنا ثم ما لبث ان انقلب خائفا .

فهذه الاساطير في القرية هي التي اخافت ابا جبران وجعلته يتنازل عن صولته . ومن الاعتقادات التي ما زالت آثارها في القرية هو الشعور ان الدار مسكونة بالجن او الارواح الاخرى ٦٩ .

وبعض الآبار تحوى اسرارا . فهذه بئر ابي زريق ٧٠ حاكوا حولها ألغازا منها ان ارواح مئات الجنود الاتراك والامان الذين القى بهم احياء في البئر هم سكان هذا البئر الذي لا قرار له . ويقسم لك الفلاحون انهم يسمعون الانين والشكوى يرتفعان على اعمدة من الشعاع الاحمر الى السماء .

ولم يكن بد الا ان يرسل عميد الاسرة في طلب احد المغاربة المشهورين بفك الطلاسم لكي يكشف المغربي عن مكان الكنز الذي اخفاه اجداد الاسرة الاول . ويبقى الامر لغزا والبئر احجية حتى يعود الى القرية شرطي مثقف لا يؤمن بخرافة البئر ويقف متحديا زلزلة الجهل التي حشر بها فلاحو قريته .

والزوجة في قصة «السندانية» لزكي درويش تحدث زوجها عن احلام غريبة : شيوخ بتياب بيضاء وعمائم خضراء ، طوال القامة ، نحاف الجسم . ويكاد يقع الزوج المثقف اسيرا للهلوسة لكنه بالتالي لا يملك الا ان يتناول عود ثقاب ويرمييه مشتعلا في احضان السندانية ذات القصص الاسطورية المريعة :

بقيت السندانية المحروقة مدة من الزمن . ثم تسابق الناس في ايام الشتاء لاخذ ما تبقى من ساقها وجذورها لمواقدهم وهم يستخرون من الولي الذي لم يثر واختفى اسمه من افواههم الى الابد ٧١ .

(٧٢) نجوى فرج : «اجير في أرضه» ، لمن الربيع . ص ٨١ .
(٧٣) محمد علي طه : «علقة سوداء» ، ن . م . ص ٧٨ .
(٧٤) ن . م . ص ٥٣ .
(٧٥) ن . م . ص ٥٥ .
(٧٦) أميل جبيني : سداسية الأيام الستة ، ص ٥٧ .
(٧٧) ن . م . ص ٦٨ .
(٧٨) ن . م . ص ١٠٧ .

(٦٨) الياس عوض : «أبو جبران» ، البئر المسحورة ، ص ١٤ .
(٦٩) «السندانية» ، ص ٣٥ .
(٧٠) مصطفى مرار : «البئر المسحورة» ، ن . م . ص ٣٥ .
(٧١) «السندانية» ، ص ٣٩ . وقارن بذلك قصة الطيب صالح : «دومة ود حامد» .